من أحاديث العيد. . .

ابتسم الصبح فابتسمت معه الثغور، وأرقت الشمس فأشرقت معها الوجوه وغنت الطير فتغنت معها النفوس بالآمال والأماني وبالأهواء والميول وتغنت معها نفوس أخرى بالأحزان اللاذعة، والآلام الممرضة، والعواطف التي تفطر القلوب وتسفح الدموع. وأندفع قوم إلى السرور العريض، واندفع قوم آخرون إلى الحزن العميق، وتردد قوم بين هذا وذاك يأخذون من كليهما بحظ معتدل، ويؤلفون لأنفسهم منهما مزاجاً لا هو بالمشرق المبتهج ولا هو بالمظلم القاتم، وإنما هو شيء بين ذاك، فيه مكان للذة والأمل، وفيه مكان للألم والذكرى. وأضطرب الناس أيام العيد بين دور الأحياء ودور الموتى، يتحدثون إلى أولئك ويفكرون في هؤلاء.

وكثير من حديث الناس الأحياء، وكثير من حديثهم عن الموتى، خليق أن يسجل ويتخذ موضوعاً لألوان مختلفة من الأدب والفن. ولكن هذه الأحاديث تقبل مع أيام العيد، وتذهب معها كأنها لم تكن. تترك آثارها في نفوس الناس ولكنها لا تترك آثارها فيما ينشئون ويكتبون. لأنهم لا ينشئون ولا يكتبون، ولأنهم إن أنشأوا أو كتبوا فقلما يقفون عندما يشعرون أو يجدون، إنما يلتمسون موضوعاتهم في السماء حيناً، وفي السحاب حيناً، وبعيداً عن حياتهم إثما. فإن مسوا حياتهم فهم لا يمسون إلا ظاهراً منها، وهم يمسونه في رفق أقرب إلى الجدب الموئس منه إلى الخصب الذي يحيي النفوس ويغدو القلوب.

أما أنا فقد كنت أتحدث إلى نفسي وإلى أصدقائي في أيام العيد أحاديث مختلفة، منها الباسم ومنها العابس، فيها الجد وفيها الهزل. ولكني كنت أحتفظ لنفسي بأشد هذه الأحاديث مرارة ولذعاً. لأني أعلم إن الناس يكرهون في أيام العيد وفي غير أيام العيد مرارة الحزن ولذع الألم. وأشهد لقد استقبلت يوم العيد بحزن عميق لأني استعرضت صوراً تعودت أن أستعرضها كلما أقبلت الأعياد، وفكرت فيمن أزوره ويزرني، وفيمن أسعى إليه ويسعى إلي، فإذا كثير من هذه الصور قد محي من صفحة الحياة ولم يبق له إلا رسم في صفحة القلب، قوي عند قوم، ضعيف عند قوم آخرين. محيت هذه الصور من صفحة الحياة فلن أسعى إلى أصحابها، ولن يسعى أصحابها إلي، إما لأن أصحابها قد نقلوا من هذه الدار التي نضطرب فيها بالألم والأمل إلى دار أخرى، لا تعرف الحركة ولا الاضطراب، وإما لأن أصحابها ما يزالون يضطربون معنا في هذه الدار، ولكن ظروف الحياة وأسباب العيش قد نقلت أهواءهم عنا إلى قوم آخرين ليسوا منا ولسنا منهم الآن في شيء، لقد كنت أبدا زيارات العيد بهؤلاء النفر من الأصدقاء الأعزاء أكون معهم ليلة العيد، فإذا تنفس الصبح فكرت فيهم، وإذا ارتفع الضحى سعيت إليهم، فلقيتهم وكأننا لم نلتق منذ دهر طويل، وقضيت معهم ساعة قصيرة ضيقة لم أفرغ لهم فيها، ولم يفرغوا إلى كثرة

المقبلين والمنصـرفين، ولكنها على ذلك سـاعة عريضـة خصـبة لكثرة ما فيها من هذا الود الذي ينتقل إلى قلبك مريحاً عذباً لا لشـــيء إلا لأن اليد صـــافحت اليد ولن التحية الهادئة البريئة من التكلف قد مست الإذن فملأت النفس حياة وغبطة وسروراً. فإذا قضيت مع هؤلاء الأصدقاء هذه اللحظة القصـيرة الخصـبة خرجت من عندهم وقد ادخرت من الغبطة والسـعادة ما يعينني على احتمال أثقال العيد فذهبت إلى دار عدلي ثم دار ثروت ثم إلى دار فلان وفلان. وقد أخذت الأيام تتخطف هؤلاء الناس واحداً واحداً حتى لقد زرت هؤلاء الأصـدقاء فقضـيت معهم ما قضـيت من الوقت، ثم خرجت فإذا أنا أنصرف إلى كوكب الشرق لا إلى دار عدلي ولا إلى دار ثروت ولا إلى دار فلان وفلان من أولئك الذين كنت احب أن أســعى إليهم واغتبط حين يســعون إلي أو حين يرســلون إلي تحياتهم مع البريد وكنت لا أكاد أتهيأ للخروج يوم العيد حتى ينبئني المنبئون بأن فلاناً وفلاناً وفلاناً من الأصــدقاء قد أقبلوا وهم ينتظرون، منهم من يريد أن يبدأ العيد بلقائي لأن لقائي كان أحب شـيء إليه يوم العيد، ومنهم من يريد أن يصـحبني في زيارات العيد لأنه يجد في هذه الصــحبة لذة ويسـراً فأما الآن فأني أنبأ بأن قوماً آخرين قد أقبلوا وبأنهم ينتظرون، أما أولئك الذين كانوا يقبلون وينتظرون قد أنقطع إقبالهم وانقطع انتظارهم إلى حين، لأنهم يخشـون الأحداث ويخافون الظروف ويشفقون من الجواسيس ويربأون بأنفسهم من غضب السلطان. هم أحياء ولكن ظروف الحياة قد قطعت ما بينهم وبيني من الأســباب، كما إن ظروف الموت قد قطعت ما بين الموتى وبيني من الأسـباب. ولم تكن أيام العيد تنقضــي حتى أزور داراً من الدور في ناحية من نواحي القاهرة فألقى فيها ابتسـام الزهرة النضـرة، والشـباب الغض، والحياة التي تبتسـم للحياة. وقد انقضــت أيام هذا العيد فلم أزر هذه الدار لأنها محزونة لا تحتفل بالعيد، ولأن زهرتها النضــرة قد اجتثت منها اجتثاثا، وانتزعت منها انتزاعاً، وحملتها الريح إلى حيث لا ينظر الزهر ولا تبتســم الحياة للحياة. لم أزر هذه الدار ولم أنعم بتلك الابتسـامة ولم أسـمع ذلك الحديث ولكن الله يشـهد إني قضـيت أيام العيد كلها، ويظهر إني سـأقضـي أياماً طويلة أخرى وأن صـوتاً من الأصـوات سـيتردد في نفسـي جافاً خشـناً متعثراً موئسـاً كما تتردد النغمة من الأنغام في القطعة الطويلة من الموسيقى، وتسألني عن هذا الصوت الذي تردد في نفسي منذ أشهر وسيتردد فيها أشهراً وأشهراً وأعواما، فهو صوت ذلك النعش حين خرج الحاملون به من الصلاة في مسجد من مساجد القاهرة وهم يعالجون إثباته على سيارة من سيارات الموتى وهو يأبى عليهم بعض الإثم يطيعهم ويستسلم لهم، وإذا خفقة جافة كأقفال الباب، وإذا النعش قد استقر، وإذا أزيز ضئيل نحيل يرتفع في الميدان ثم يتسـع ويضـخم، وإذا السيارة تنطلق كأنها السـهم إلى ذلك المكان الذي لا يعود منه من استقر فيه. وإذا نحن نتبعها كاسـفين ونعود كاسـفين، وإذا الحياة تتصـل بنا وتضـطرب خطوبها حولنا، وتصـرفنا عن أنفسـنا وعن الناس، ولكن ذلك الصـوت الجاف الخشـن المتعثر يعود إلي من حين إلي حين فيذكرني بذلك اليوم الثقيل الذي شيعت فيه فقيدين عزيزين في اقل من ساعتين.

بهذا وأمثاله كنت أتحدث إلى نفســـي أيام العيد، فإذا ســـألتني عما كنت أتحدث فيه إلى الناس وعما كان الناس يتحدثون فيه إلى حين كنا نلتقي، فيا للبؤس! ويا للفقر ويا للشـــقاء! ويا لجدب الحياة وإفلاس الاحياء، كنا نتحدث عن الأزمة المالية، وكنا نتحدث عن الســياســة، وكنا نتحدث عن غدو المندوب الســامي مع الطير يوم العيد وما يحيط بغدوه ذلك من أســرار وأخبار ومن تأويل وتعليل. ثم كنا نتحدث عن بعض هذه الأشـــياء الممتازة التي ظفرت بأحاديث الناس وشغل الصحف وعناية رجال الأمن: كنا نتحدث عن ذلك الخاتم الذي اضطرب له رجال الأمن وعطلت له دار من دور التجارة، واتصـــل حوله تحقيق طويل ودقيق ولم تبح صـــحيفة مصـــرية عربية أو غير عربية لنفســـها أن تعرض عنه أو تطوى أخباره عن قرائها، ثم أصـــبح الناس يوم العيد فإذا الصحف تنبئهم بأن سيدة التقطته أمام مدرسة من المدارس فظنت جوهره من الزجاج ولم تعلم انه حجر نفيس، وان مدينة القاهرة مضطربة له اشد الاضطراب، وان قيمته تربى على ألف من الجنيهات. وكنا نتحدث عن هذا الدبوس الذي افتقدته صـــاحبته فلم تجده فارتاعت لفقده وهم أصحابها أن يقولوا قصة كقصة الخاتم، ولكن شابا لم يلبث إن التقطه فرده إلى صاحبته، فلم يضـــطرب رجال الأمن ولم يحتج رجال التحقيق إلى النشـــاط، ولم تزد الصـــحف على أن روت الخبر رواية يسيرة قصيرة في مكان غير ظاهر ولا ممتاز. وكنا نقارن بين قصـة الخاتم وقصـة الدبوس وبين حظ الخاتم وحظ الدبوس. وكنت أقول لأصـــدقائي وهم يبتســـمون ويضـــحكون ويفلسفون: على رسلكم أيها السادة، فلو قد سألتم ذلك الخاتم أو ذلك الدبوس عما يعرفان من التاريخ، ولو قد أراد الخاتم وأراد الدبوس أن يقص عليكم بعض ما يعرفان لما ابتسمتم ولا ضحكتم ولا أغرقتم في الفلســفة هذا الإغراق. فليســت قيمة الخاتم والدبوس في هذه الجنيهات التي تربى على الألف أو تبلغ المئات فحسب، ولكن قيمتها فيما يحملان من ذكرى وما يصوران من حياة، وفي هذه الصـــلة التي تصـــل بينهما وبين القلوب والنفوس. قال صـــديق ماكر: فحدثنا إذا عن خاتمك الذي فقدته، فقد يظهر أنك فقدت خاتما أيضـــاً وان أمره قد ارتفع إلى رجال الشـــرطة ثم هبط إلى الصـــحف ثم ذاع بين الناس. قلت وإنك لتتحدث عن هذا الخاتم هازلا كأنما تغض من أمره وتزدريه، فهل تعلم إني حزنت عليه حزنا شـــديدا! وهل تعلم أنه ليس أقل خطرا ولعله أعظم خطر عندي من ذلك الخاتم وهذا الدبوس؟ وهل تعلم أنه يمتاز من ذلك الخاتم وهذا الدبوس بان له الحياة المصرية العامة آثاراً باقية، به أصبح قوم دكاترة. وبه أدرك قوم آخرون إجازة الليسانس، وبه صرف كثير من أمور الدولة، وقضى في مصالح كثير من الأستاذة والطلاب أعواما، فحدثني أين يقع من هذا كله إثر ذلك الخاتم وهذا الدبوس في حياة المصـــريين؟ ومع ذلك فلم تبلغ قيمته ألفا ولا مائه، ولا عشرة من الجنيهات، استغفر الله، بل لم تبلغ قيمته عشرة من القرش، وإنما كانت قيمته قرش ونصف قرش ليس غير، اتخذته حين كانت الأشياء رخيصة، في ذلك الزمن، الذي كنا نستطيع أن نبلغ فيه بالقرش كثير من المآرب والحاجات، اتخذته في باب الخلق، خارج ذات

يوم من دار الكتب، وكنت في الرابعة والعشـــرين من العمر، وكنت أريد أن أســـافر إلى أوربا، واظهر لي هذا السفر إني شخص من الأشخاص، يجب أن اذكر مولدي، واعرف سني، واقدر ما آتي من الاعمال، في ذلك الوقت بحثت عن شـهادة الميلاد وكانت ضـائعة، فعرفت سـني وكنت أجهلها، وفي ذلك الوقت قيل لي من أتى عملا أو قال قولا وجب عليه أن يمضـــيه، فاتخذت هذا الخاتم، صـنعه لي رجل كان يصـنع الخواتم قريبا من المحافظة، ثم عبر معي البحر، وصـحبني في فرنسا طالبا، وصـحبني في الجامعة أستاذاً، عمل معي في أعمال الدولة، وأمضـى معي عن أمور الدولة، وكان صديقا أميناً، لست أدري، كيف قبلت فراقه حينا، وأتمنت عليه صاحبي، حتى أقبل ذات يوم ينبئني أنه افتقده فلم يجده، هنالك ضـقت به وضـقت بالناس، وضـقت بالحياة كلها وقتا غير قصـــير، ثم زعم لي زاعم إن الأمر يجب أن يرفع إلى الشـــرطة فرفع اليها، وهبط إلى الصـحف، ولكن الشـرطة تلقت أمره باسـمه، لكن الصـحف نشـرت أمره مداعبة، ولكن الأصـدقاء تحدثوا عنه حين، أفرأيت إن قيم الأشـــياء، تختلف لا باختلاف آثارها، ومكاناتها ولكن باختلاف أصـحابها، فلو كنت رئيس الوزراء، لما ابتسم الشرطي، ولما داعبت الصـحف لأني فقدت خاتما، ولكني لست رئيس الوزراء فيبسم الشرطي، ولا يأتي حركة وتداعب الصـحف، وتمزح أنت ويمزح هؤلاء بهذا وامثاله، كنا نتحدث أيام العيد.